



النشرة

تصدرها مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

العدد ٤٩/١٩٩٧

الأحد ٧ كانون الأول

تذكار أبينا الجليل في القديسين

أمبروسوس أسقف ميلان

والقديس يوحنا كرونشتادت

اللحن الثامن

إنجيل السحر الثالث

الرسالة (أفسس ٤ : ١ - ٧)

الإنجيل (لوقا ١٣ : ١٠ - ١٧)

* العبادة المسيحية (تابع)

رأينا في العدد السابق ان الليتورجيا تدخلنا في عصر الملكوت حيث المسيح "الذي يملأ الكل في الكل" (أفسس ١ : ٢٣). الله الرب ظهر لنا. في الليتورجيا يستعلن لنا المسيح القائم ونحن نشترك في أعمال حياته الخلاصية ونعلن قبولنا العمل الخلاصي لكي تتجدد حياتنا وتصور من جديد على صورته ومثاله هو الذي جبلنا منذ البدء. ولعل ما جاء في إرشادات المجمع الفاتيكاني الثاني حول الليتورجيا، في محاولة لتجديد الحياة الروحية الغربية، هو صلب ما عاشته وتعيشه الكنيسة الشرقية: "... عبر الليتورجيا ... يعرف ويمارس عمل فدائنا. الليتورجيا إذا هي الوسيلة الأمثل حيث يعبر المؤمنون في حياتهم، ويظهرون للآخرين سر المسيح الطبيعية الحقيقية للكنيسة الحقّة".

لقد بقيت الكنيسة الشرقية أمينة لهذه الروح الليتورجية التي تعود لعصور الآباء الذهبية، في القرون الأولى عندما كان يهتدي الوثنيون الى المسيحية بقوة الكلمة المخلصة

ويدخلون اليها عبر الأسرار في الإجتماع الليتورجي. بكلام آخر، كل الكنيسة كانت ليتورجية في العصور الآبائية. لم تكن بعد مدارس مسيحية أو صفوف تعليم منهجية أو رياضات روحية، بل إجتماعات يومية عبادية في الصباح والمساء حيث كانت تقرأ كلمة الكتاب المقدس وتفسر. أما في يوم الرب فالسهرانية طوال الليل مع الإجتماع الإفخارستي والدروس والعظة. وكان الصوم الكبير، حيث يهيء الأسقف الموعظين، المرشحين للمعمودية ليلة الفصح، عبر العظات الأسرارية الطويلة كما وصلت إلينا من القديسين كيرلس الأورشليمي ويوحنا الذهبي الفم وثيودوروس المبسوستي (من القرن الرابع). الخدمات الأخرى كانت أيضاً جزءاً من الإجتماع الليتورجي. فالتقدمات من أجل المرضى والفقراء مثلاً كان يؤتى بها إلى الكنيسة وتعطى للشمامسة ليشرّفوا على تقديمها وتوزيعها.

في الإجتماع الليتورجي كان يتم أيضاً تعليم الموعظين وتعميدهم، وكان يقبل التائبون وتتم مصالحتهم مع الجماعة الكنسية كما كانت تبارك العائلات في سر الزواج ويقام الكهننة لخدمة الكلمة والرعاية وترفع الصلاة لأجل المرضى إلخ... باختصار في الإجتماع الليتورجي يقدم لنا المسيح.

ما هو مأساوي في عصرنا اليوم هو، حصر الحياة الليتورجية للرعية بالقداس الإلهي، الإجتماع الإفخارستي، يوم الأحد، أو في صلاة الغروب لأحد الأعياد المعروفة، وهذا أمر غريب عن حياة الكنيسة الأولى حيث كانت حياة المسيحيين ليتورجياً مستمرة "وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة. وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب مسبحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعوب. وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون" (أعمال ٢: ٤٦ - ٤٧). نحن لانعي أننا كلما اجتمعنا بنفس واحدة وروح واحدة نحقق فعلاً الكنيسة، جسد المسيح، لأننا نجتمع بإسم المسيح وهناك يكون بيننا. اجتماعنا هو عمل الشعب المحب لله. مجرد مجيئنا لنجتمع ولنفرح معاً بالرب هو ليتورجياً.

ربما مرت أزمنة لم يستطيع المؤمنون خلالها أن يعلنوا إيمانهم علانية ولم يعرف خلالها لاهوتيون كبار، لكن أحداً لم يستطع منع المسيحيين من الصلاة والعبادة وما حفظ الإيمان وقتئذ وعلى مر العصور هو إصرار المؤمنين على إقامة الأسرار حتى في الخفاء أحياناً، غير آبهين بالمخاطر والاضطهادات. يقول الكاتب بيتر هاموند Peter Hammond، في وصفه للكنيسة اليونانية بعد الحرب العالمية الأولى، موضحاً أثر العبادة على مسيحي الشرق: "لا أحد عاش بين مسيحي اليونان وشاركهم العبادة، ولو لفترة زمنية قصيرة، لم يلاحظ أثر الدورة الليتورجية الهائل على تقوى عامة الشعب. لا أحد حفظ الصوم مع الكنيسة اليونانية واشترك في الصيامات التي تثقل الأمة بكاملها لمدة أربعين يوماً، ووقف ساعات طويلة بين الحشود التي تكتظ بها كنائس أثينا البيزنطية الضيقة وتفيض إلى الشوارع، فيما يقدم تدبير الله الخلاصي بمزامير ونبوءات وقرارات من الإنجيل وقوانين شعرية لا تضاهي، لا أحد

عرف حزن يوم الجمعة العظيم المقدس عندما تدق كل أجراس اليونان أسي على المخلص المكفن بالزهور في جميع كنائس القرى، وعابن انبعاث النور وتذوق فرح العالم المحرر من نير الخطيئة والموت، لا أحد ممن عاشوا هذا كله لا يدرك ان الإنجيل، بالنسبة للمسيحي اليوناني، مرتبط ومتلازم مع الليتورجيا التي تكشف أسبوعاً بعد أسبوع في كنيسة رعيته. لقد بقيت الليتورجيا في صلب حياة الكنيسة ليس فقط بالنسبة لليونانيين إنما أيضاً لكل الشعب المسيحي الأرثوذكسي“.

* الموسيقى البيزنطية المقدسة (تابع)

عوض استخدام تعدد الأصوات في الترتيل (Polyphony) او مصاحبة الأرغن أو أية آلة موسيقية أخرى، تستخدم الموسيقى البيزنطية المقدسة وسيلة روحية رفيعة، هي المرافقة الموسيقية للترتيل بواسطة الـ ”ايصون“ او الخلفية النغمية التي ترافق الكلمات المرتلة بإصدار طبقة سفلى في اللحن (القرار)، وهي ما تسميها المخطوطات البيزنطية القديمة ”الأدوات التي ”تمسك“ باللحن“. (حاشية: لذلك نقول اليوم في اللغة المحلية: فلان ”ماسك“ الإيصون). إن وظيفة الذين يرافقون الترتيل بهذه الطريقة تكمن في إرساء الخلفية التي تماشي اللحن في صعوده ونزوله.

إن ”الإيصون“ لا يبرز جمالية اللحن فقط بل يساهم أيضاً في إبراز الطريقة التي يرتل بها المزمور او الترتيلة ويضيف الهدوء النغمي والقوة في آن الى الترتيل. واستعماله يرجع الى الحقبة المسيحية الأولى.

من ناحية أخرى، ولكي يتاح للمرتلين ان ينعموا بفترات ضرورية من الراحة، ومن أجل حفظ المصلين في حالة من الصحو الداخلي الضروري في الحياة المسيحية (خاصة أثناء العبادة)، درجت العادة على ان تقوم جوقتان بالتناوب في الترتيل (حاشية: اليوم، وفي معظم كنائسنا الإنطاكية، لا وجود لجوقتين في الكنائس، إلا أن مبدأ التناوب ما زال قائماً عبر قيام مرتلين أو مجموعتين في الجوقة نفسها بالمهمة عينها). هذا يؤمن الراحة للمرتل ويبعد عن نفوس المؤمنين الرتابة المتأتية عن سماع نفس الصوت طيلة الوقت.

إن استخدام الترتيل المتناوب يعود الى عصر الآباء الرسولين. فالكتّاب القدماء، كالمؤرخ سقراط (وهو طبعاً غير الفيلسوف الذي عاش قبل المسيح) الذي كتب في القرن الرابع ان أول من استعمل الترتيل المتناوب كان القديس اغناطيوس المتوشح بالله، أسقف إنطاكية الأول بعد الرسول بطرس. فقد عاش هذا القديس المهم بين منتصف القرن الأول وبدايات الثاني، ويقول التقليد انه تتلمذ على يدي الرسول يوحنا الإنجيلي. وتخبرنا المصادر التاريخية ان الترتيل المتناوب كان يستعمل في القرن الرابع في مصر وليبيا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية وسوريا وبلاد ما بين النهرين وغيرها.

+ صفات المرتل

يتضح لنا مما سبق قوله عن الحالة الداخلية الروحية اللازمة لأداء الترتيل البيزنطي المقدس، ان على المرتل ان يكون مسيحياً فعلاً وليس بالاسم فقط. يجب عليه ان يتميز بالصحو الداخلي، بخوف الله ، بالقداسة، بالتواضع وبالفهم. وعندما نقول الفهم لا نقصد ذلك المتعلق بماهية ما يرتل بل وأيضاً بفهم الهدف الذي عُين ليخدمه. وغني عن القول ان عليه ان يتمتع بصوت مميز وجميل وبالمقدرة الموسيقية، وان يكون قد تلقى تدريباً كافياً على الترتيل البيزنطي.

لقد وعى آباء الكنيسة هذه الأمور منذ بداية المسيحية. فقوانين الرسل كما قوانين مجعبي اللاذقية وترولو وتصنف المرتلين مع الإكليروس وتطلب إليهم ان يعيشوا بصرامة أكبر من تلك التي تطلب من العلمانيين. وتوصي هذه القوانين انه "ينبغي الا يرتل في الكنيسة الا المرتلون القانونيون".

* من قوانيننا

- "لا يجوز لأحد ان يرتل في الكنيسة عدا المرتلين القانونيين الذين يصعدون الى منصة الترتيل ويرتلون من كتاب" (قانون ١٥ - مجمع اللاذقية).
- "ان المرتلين في الكنائس يجب الا يستعملوا اصواتاً خارجة عن النظام "يقسروا الطبيعة بالصراخ أو يخرجوا انغاماً لا يليق سماعها في الكنيسة، بل يجب ان يقوموا بالتسابيح لله بانتباه وخشوع تامين وهو المطلع على سرائر القلوب" (القانون ٧٥ مجمع ترولو).
- "الايبوزباكون او القارئ او المرتل او العامي الذي يدمن لعب النرد وشرب الخمر فلكيف عن ذلك او فليقطع من الشركة" (القانون ٤٣ - قوانين الرسل).
- "فليسقط أي أسقف او قس او شماس او قارئ او مرتل لا يصوم صوم الفصح الأربعيني المقدس او يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع الا إذ اضطرته الى ذلك علة جسدية، أما العامي الذين لا يصوم فليقطع من الشركة" (القانون ٦٩ - قوانين الرسل).